مدخل لدراسة الوعي التطبيقي للقرآن

٣

وعي العلاقات الانسانية
الجدل والصراع

الشيخ حسين أحمد شحادة

وفي هذا الإطار، نقف لبلورة مفهوم العلاقات الإنسانية المحسومة قرآنياً بقاعدة التعارف، الذي لا ينفي خصوصية التمايز لدى الأمة، وإطلاق حريتها في التفاعل والتأثير المتبادل، على نحو توظف فيه التناقضات الاجتماعية لصالح مشروع التوحيد، وقدرته على كشف الجوهر الواحد ضمن الجدل الإنساني، بوصفه حقيقة كبرى تدفعنا إلى عالمية لا تستهين بخصائص الأمم والشعوب، ولا تنكر ضرورة التنوع والحق بالاختلاف: ﴿**فإنْ تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ٦٤]. ودون أن تقطع الطريق على الآخر؛ ذلك أن مساحة النهضة الفكرية والثقافية تتسع للجميع، ما دامت محكومة لمسؤولية الحوار والجدال بالتي هي أحسن.

فالأساس القرآني لوعي هذا الجدل يقوم على احترام العقل، وشرعية دوره في عمارة الأرض وبناء الدنيا، في حركة الكدح الذي ينشد الكمال والحياة؛ وتلك هي حجة الله المكتملة في حجة الرسل ﴿**قل فلِلّهِ الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾ [سورة الأنعام، الآية/ ١٤٩]، كما يقوم على مبدأ الكرامة الإنسانية، وحق الدفاع عن النفس، وتحمل المسؤولية، وحق المساواة.

١ ـ ﴿**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾ [سورة الإسراء، الآية/ ٧٠].

٢ ـ ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين. . . والجروح قصاص﴾ [سورة المائدة، الآية/ ٤٥].

٣ ـ ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [سورة المدثر، الآية/ ٣٨].

على أن يكون المنهج في ذلك توحيد الرؤية إلى الكون وتجليات منظومته، ليصل الإنسان في معارج البحث عن الأسرار إلى الحقيقة المطلقة التي تحكم قوانين الطبيعة وقوانين التاريخ، بما يجعل من قراءة المسيرة الإنسانية قراءة منسجمة في الخط البياني لحركة وحدة النوع، في مدارج التنافس والصراع والجهاد، وصولاً إلى تشكيلات الصيغة العالمية للتعارف والسلام.

فالناس جميعاً قد نبتوا من مصدر واحد ونفس واحدة ﴿يا أيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ [سورة النساء، الآية/ ١]. بيد أن هذه النفس الواحدة، عندما تخوض ميدان الاختبار وتواجه معترك الثنائية وتحديات الفتنة والغرائز، تنتهي إلى إحدى حالتين: إما الانتصار بالسموّ والتزكية، وإما الهزيمة بالرضوخ لمطالب الهوى والاستغراق في شهوة المال والسلطة والأنا؛ وبذلك ينشأ التفاوت والتفاضل بين النفوس الكبيرة والنفوس الصغيرة، لترتفع نفسٌ إلى الحياة العليا، وتهبط أخرى إلى الحياة الدنيا: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ [سورة الزخرف، الآية/ ٣٢]. ويمتد هذا التفاضل إلى مواقع الأنبياء والرسل كنتيجة طبيعية لاختلاف الأدوار الرسالية: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات﴾ [سورة البقرة، الآية/ ٢٥٣].

ثم يجري التمايز بمقياس مغاير لموازين النزعات العرقية والقومية، فتستبدل موازين التنازع والخصومة، بإشاعة روح التنافس على العلم والتقوى والجهاد وصالح الأعمال، فيما توحي به الآيات الكريمة:

١ ـ ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ [سورة الأنعام، الآية/ ١٣٢].

٢ ـ ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [سورة الزمر، الآية/ ٩].

٣ ـ ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ [سورة النساء، الآية/ ٩٥].

٤ ـ ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ [سورة النساء، الآية/ ٣٢].

هكذا تتكون الشخصية القرآنية وتنمو في محضن الحرية، ولذلك كان الإسلام والاستعباد على طرفي نقيض لا يجتمعان، فليس لمسلم أن يستعبد غيره، وليس للدولة الإسلامية أن تطغى في التحكم في رقاب الناس، ولكن لها الصلاحية أن تحكم بالحق والعدل على المفسدين في الأرض ممن يتجاوز حدود الله، أو يتنكب جادة الصراط السويّ المستقيم، والأساس في ذلك كله سيادة الإنسان بمفهوم الخلافة الربانية، وحرمة ماله ودمه، ويتضح ذلك من قول الرسول (ص) حينما وقف تجاه الكعبة وأخذ يخاطبها بقوله: «ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لَحُرْمَةُ المؤمن عند الله أعظم من حرمتك: ماله ودمه».

إنّ عقيدة التوحيد تحدّد لمهمتها هدفاً كريماً، هو إصلاح الإنسان وإصلاح المجتمع، وإصلاح الدولة التي أخذت على عاتقها إدارة المجتمع، فتخطط لتوجيه الجدل بما يصوغ العلاقات الإنسانية في أروع صيغة ينمو في أجوائها إنسان الخير، الذي تغلب على شرور نفسه وشرور هواه.

وإنّ حكم العدل والرحمة والتعارف أشبه ما يكون بالسفينة تدفعها الريح ويتقاذفها الموج، ولكن في انتظام وتدبير، وعلى هوادة من المعرفة والثبات والتقدير، والربان في تلك السفينة يصرف أجهزته حتى لا يطغى الموج ولا تطغى الريح، فهو أبداً يحاذر انفلات الأجهزة كما يحاذر الطغيان.

وأما حكم الظلم فهو حكم الجاهلية والغزوات والبغي والفوضى، وهو أشبه ما يكون بقيادة السفينة تهب عليها الرياح وهي عاصفة، فتعجز الأجهزة عن السير بالسفينة لأنها تصبح حينئذ ملكاً للأنواء وملكاً للأهواء، لا ملكاً للربان، وتلك هي مشكلة الصراع وخطورته، وتلك هي مشكلة الصراع وضرورته، التي تهيب بالوعي والتفكير على مسارعة الإنقاذ ودرء الخطر.

لقد كانت أوروبا إلى مطلع القرن التاسع عشر تمارس تجارة الرقيق واستعباد الإنسان، فتؤلف الشركات الرأسمالية بموافقة الحكومة والبرلمان، ويصدر بإنشائها قانون يخوّلها صراحة الحصول على الرقيق من إفريقيا وبيعه في الأسواق العالمية حينذاك، فلّما استفاقت لتحريم العبودية ومكافحة الاسترقاق، وجدت نفسها تستبيح لوناً جديداً من العبودية والتجارة، هي عبودية الاستعمار والاسترقاق السياسي والاقتصادي، فكيف نعقد مصالحة بين الحق والباطل؟.. إن المشكلة تبدو عسيرة ومعقدة وعصيّة على الحلول، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن منطق التسوية والتراخي، واقتسام الغنائم ومناطق النفوذ والأمن، كل ذلك سيضع الأزمة على مواقد النار الهادئة، التي ستلتهب وتشتعل بالتأكيد، كلما تحركت فينا نوازع الشر والطغيان.

وإذن فلنمسك بالدرجة الأولى منطقة النفس لإجراء السيطرة عليها من مملكة العقل الواحد، الذي يفترض أن نعترف بشرعية إدارته وقبول أوامره ونواهيه، ولكي يكتسب هذا العقل قدرته على التحكم في الغرائز يجب أن يكون متفوقاً ومؤثراً بما يمتلك من قوة الإدراك والرشد، ولن تتيسر هذه العملية إلا على ضوء فلسفة الإيمان والتوحيد في إطار الوعي الكوني الشامل للوجود.

قد يبدو هذا التصوير ضرباً من الخيال إلا أنه خيال يستند إلى صورة مصغّره، تتحرك وتحيا في واقع الإنسان الذي نعتبر مشكلة صراعه مع نفسه مرآة تعكس عذابات الإنسانية القلقة، إذ تنوء وترزح بنيران الحروب، فإذا صح للإنسان أن ينتصر على نفسه، وأن يطوّع غرائزه لما فيه الخير والطمأنينة، صح للإنسانية المعذبة أن تنتصر على كوابيس الحرب التي تؤرق مضاجعها منذ النشأة الأولى وحتى ظهور النظام العالمي الجديد: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيِّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [سورة البقرة، الآية/ ٢١٣].

فالحياة الأولى للنوع الإنساني كانت حياة قائمة على التعارف، وكان الإنسان يحيا مع أخيه الإنسان في وحدة فطرية يظللها الاستقرار، وهي وحدة قامت على التوافق بين المصالح والحاجات، ولم يكن خارج هذه ـ الوحدة ـ قوة ناشزة تهدّد أمنها أو تفسد عليها هذه الحياة الندية على بساطتها، ولم يكن يعكر صفو تلك الأيام والتي كانت تمضي بهم على وتيرة واحدة إلا ما تثيره الطبيعة وتقلباتها في نفوسهم، من ذعر وخوف واضطراب، ولم يعهد الإنسان غلبة أو صراعاً إلا ما كان يشهده يومياً من غلبة الحيوان المفترس وفتك الأمراض، ومع تصرم الزمن وتداول الأيام نشطت حركة الحياة بالأسئلة، وانتشر النوع الإنساني بالتناسل، فصارت القبيلة الواحدة قبائل، والأمة الواحدة أمماً والشعب الواحد شعوباً، فاختلف الدم واللون وأسباب الرزق، واختلفت على ذلك العقول والمصالح والأهواء، فوجد الصراع طريقه لتقسيم الأسرة الإنسانية إلى محاور عرقية وجغرافية وسياسية، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه..

وبذلك أضيف إلى خلافاتهم خلاف جديد فرضته ضرورات الهداية، لتقويم ما اعوجّ وإصلاح ما فسد من شؤون الغابرين واللاحقين، ولا تزال الهداية صابرة تقاوم الضلالة

وتصارعها، فمرة قاتلة ومرة مقتولة في وعد مكتوب: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن**﴾ [سورة التوبة، الآية/ ١١١].

لقد بدأ العدوان بغياً من الكفر، ولن تهدأ هذه الحرب حتى يتخلى الكفر عن أوزاره ﴿**وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيِّناتُ بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [سورة البقرة، الآية/ ٢١٣].

وبهذه المرحلة المضيئة من التاريخ ندخل عصر النبوّات، فنستبدل الغريزة بالفطرة، والانحراف بالاستقامة، والشرك بالتوحيد، والقانون الوضعي بقانون السماء؛ وبذلك تعود الحياة في ظل الحضارة الإلهية إلى سابق براءتها وفطرتها، ووحدة أمتها وإنسانها، فتعيد الاعتبار إلى هابيل المضطهد والمظلوم، لتشهد العلاقات الإنسانية عهداً مشرقاً لا وجود فيه للأقوياء ولا للضعفاء، وإنما للأتقياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدّلوا تبديلاً...

إنه الحلم الذي يراودنا جميعاً في آناء الليل وأطراف النهار، ولكنه حلم مشروع يقتضي منا أن نقف على مرتكزاته وقواعده، لنلفت النظر إلى أن سياق الآيات القرآنية التي تناولت موضوع الجريمة الأولى، تنطوي على تحذير مباشر وصريح لبني إسرائيل، حيث اعتبر التصوير القرآني لقصة ابني آدم بمثابة الدرس الخطير لبني إسرائيل، وهو درس يتضمن التحذير والتأنيب على مخاطر الصراع بسفك الدماء، ذلك أنه كان من دأبهم الاستهانة بالدماء، واستباحة القتل الذي أسرفوا فيه، حتى طال رؤوس الأنبياء والرسل، وإذن لا نبالغ بالقول إذا اشترطنا لمعالجة مشكلة الصراع العالمي. إلغاء الفكر الإسرائيلي، ومكافحة العنصرية من عقول الساسة وأذهان القادة والحكام في الشرق والغرب، وهي عقول تغذيها الصهيونية من قديم الزمان على حب السيطرة وشهوة القتل والجشع والعدوان.

﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحيا النَّاس جميعاً ولقد جاءتهم رُسُلُنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون**﴾ [سورة المائدة، الآية/ ٣٢].

نعم إن الإنسان المؤمن يواجه في هذا العصر مشكلة التوفيق بين مفهوم حرية المعتقد على ضوء ما يدعو إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلّهم جميعاً**

﴿أفأنت تُكْرِهُ النّاس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [سورة يونس، الآية/ ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ [سورة البقرة، الآية/ ٢٥٦]. وبين مفهوم الصراع بأشكاله الفكرية والسياسية والعسكرية، على ضوء قوله سبحانه: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [سورة الأنفال، الآية/ ٦٠].

فالإنسان المؤمن إذ يواجه هذه المشكلة ومخاطرها على مشروعه العالمي للحضارة، يجد نفسه محاصراً بالغزو الثقافي الحديث، فقد عمدت الحضارة الغربية على تصدير أفكارها وفلسفاتها القائمة على بذر روح التعصب والعنصرية والقومية، وأشاعت في العالم لغة النزاع والصراع بمنطق القوة والغلبة، على أساس أن الغالب والمسيطر، هو الأصلح للعيش والأصلح للبقاء، وقد واجه القرآن هذا المنطق بلغته الإنسانية، فاعتبر أن العلاقة بين الناس في دستور القرآن هي علاقة سلم حتى يضطروا إلى الحرب دفاعاً عن أنفسهم، أو اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضرباً من الدفاع، فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوباً لا هوادة فيه، وهو مع وجوبها مأمور بأن يكتفي من الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة.

وشرع الإسلام القتال على درجات. فلم يشرع حالة إلا وضع لها حدودها وبيّن للمسلمين ما يجب عليهم فيها، وقد تم له في نحو عشرين سنة قانون دولي كامل لأحوال الحرب مع المقاتلين على اختلافهم، فأتم في القرن السادس ما بدأت فيه أوروبا في القرن السابع عشر، ورغم ذلك فقد تقهقرت دول الغرب في بعض أحكام القانون الدولي إلى ظلمات القرون الوسطى، وأسقطت حرمته في أخطر الحقوق وهو حق المفاتحة بالحرب أو حق الإغارة على الأمم بغير إعلان. وقد قدّم الأستاذ مالك بن نبي شرحاً مفصلاً لأبعاد هذه الأزمة وحوافزها المادية النفعية، التي جردت الإنسان الأوروبي من أخلاقياته في كتبه الثلاث: الفكرة الإفريقية الآسيوية، الصراع الفكري، وجهة العالم الإسلامي.

فيعزي في الأول أسباب ذلك إلى أن العقل الغربي ذاتي أناني من الوجهة الأخلاقية، فالفضيلة الغربية لا وجود لها بالنسبة للعالم، لأنها لا تشع على عالم الآخرين، والغربي لا يحمل فضائله خارج عالمه هو، فخارج حدوده الأوروبية لا يكون إنساناً بل أوروبياً. وهو لا يرى بعد ذلك أناساً بل مستعمرين.

وفي الثاني: ينذرهم بالهزيمة والسقوط ما لم يتركوا الشعوب المستضعفة تقرر مصيرها لتعيش بسلام، ذلك أن الذين يزعمون أنهم قوامون على الحضارة الإنسانية سيكتشفون بعد حين نهاية الغدر بالمعاهدات ومصير الاستكبار.

وفي الثالث يعرض واحدة من عشرات الألعاب البهلوانية التي يتقنها الغرب في إدارة الأفكار والشعوب، فيرى أن الاستعمار يتبع في ذلك طريقة تطبق في بعض الألعاب الإسبانية: إنهم يلوحون بقطعة قماش أحمر أمام ثور هائج في حلبة الصراع فيزداد هيجانه بذلك، فبدلاً من أن يهجم على المصارع يستمر في الهجوم على المنديل الأحمر الذي يلوح به حتى تنهك قواه. فالاستعمار يلوح في مناسبات معينة، بشيء يستفزّ به الشعب المُسْتَعمر حتى يثير غضبه، وبغرقه في حالة شبيهة بالحالة التنويمية، حيث يفقد شعوره ويصبح عاجزاً عن إدراك موقفه وعن الحكم عليه حكماً صحيحاً، فيوجه ضرباته وإمكانياته توجيهاً أعمى، ويسرف من قواه دون أن يصيب بضربة صادقة المصارع الذي يلوح بالمنديل الأحمر..

الاستعمار بطل الألعاب الاسبانية في المجال السياسي، ويمضي الشعب الباسل في هذا الوضع الدرامي كأنما تضحياته ذاتها من النفس والنفيس. جمدته وقضت عليه بالبقاء فيما هو فيه.

وهكذا نصل إلى استنتاج جد غريب في السيكولوجية السياسية، وهو أن السياسة العاطفية لا تجد مبرراتها في كسبها ولكن في خسارتها، فكلما تقطّعت أنفاس الثور ونزف دمه في حلبة الصراع، يزداد هجومه على المنديل الأحمر؛ والاستعمار يجيد تشغيل هذا الجهاز حيث إنه هو الذي ابتكره وركّبه، أو ركّب فيه بعض محركاته، فهو يعلم أن هذه المحركات ليست من مواهب ضمير ولكن من خصائص أمعاء، فهو يستمر إذاً في التلويح بالمنديل الأحمر حتى لا تكون للشعب المضطهد فرصة يتدارك فيها ويفكر في أمره، وأن ينظر إلى مشكلاته بمنطق الفعالية، أي أن يضعها طبقاً للأسس السياسية العلمية، هكذا يجمد الاستعمار القوات التي تناضل ضده، يجمّدها عند نقطة معينة وتحت راية معينة.

وبعد، لقد تعلم المسلمون أصول القانون الدولي قبل ظهوره في الغرب بأكثر من عشرة قرون، فلما تجاورت دول الإسلام ودول الغرب حول البحر الأبيض المتوسط، كانت شريعة الدولة الغربية في القانون الدولي هي الشريعة التي خلفتها لها دولة الرومان: «من جاورك فهو عدوك: تُخْضِعُه أو يُخْضِعُك، وتبدأ بالحرب متى استطعت، ويبدأك بالحرب متى استطاع، وكانت هذه

الشريعة على أشدها في معاملتهم لبلاد المسلمين لأنهم أفردوها بعداء واحد فوق كلّ عداء، بينما ظلّت شريعة الإسلام تنادي بأنفاس النبي (ص) ووصيته في الجيران وحسن الجوار، حتى قال أصحابه ـ رض ـ ظل رسول الله (ص) يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه.

وفي هذا المجال يسوق شيخ الأدباء العقاد شاهداً على أضاليل فقهاء الغرب في القانون الدولي، لأنهم أسقطوا حقوق الترك في المعاملات الدولية بذريعة الإغارة على البلاد الأوروبية في غير مسوّغ للإغارة عليها، وهم أي هؤلاء الفقهاء لا يشقّ عليهم أن يعلموا مسوغ تلك الإغارة لو كان لهم ميزان واحد للمعاملات بين الدول، يزنون بها حقوقها جميعاً على سواء..».

فالعالم الأوروبي، باتفاق ملوكه وأمرائه، وبابواته، قد شهر الحرب على العالم الإسلامي في حروبه الصليبية قبل زحف الترك العثمانيين على آسيا الصغرى في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، وكانت أخبار مذابح المسلمين في بيت المقدس وفي المغرب الأندلسي تجوب آفاق القارة الآسيوية إلى أقصاها شرقاً، وتجوب آفاق القارة الإفريقية إلى أقصاها جنوباً، وتتغلغل في أنحاء العالم الإسلامي مع الحجاج والمهاجرين في كلّ عام، فلا تدع مسلماً في الأرض بمعزل عن الشعور بحالة الحرب الداهمة لأنه يعلم أنها مشهورة عليه...

أما أن يعلم فقهاء الغرب عمق هذا الشعور في بلاد العالم الإسلامي، ثم يستكثرون على شعب من شعوبه أن ينظر إلى الغرب نظرته إلى محارب يقتص منه، فلا عذر له إلا الأثرة العمياء، التي تجيز لصاحبها أن يقتحم بلاد غيره، ثم لا يفهم من اقتحام بلاده بعد ذلك إلا أنه عدوان بغير سابقة وبغير حجة أو إعلان.